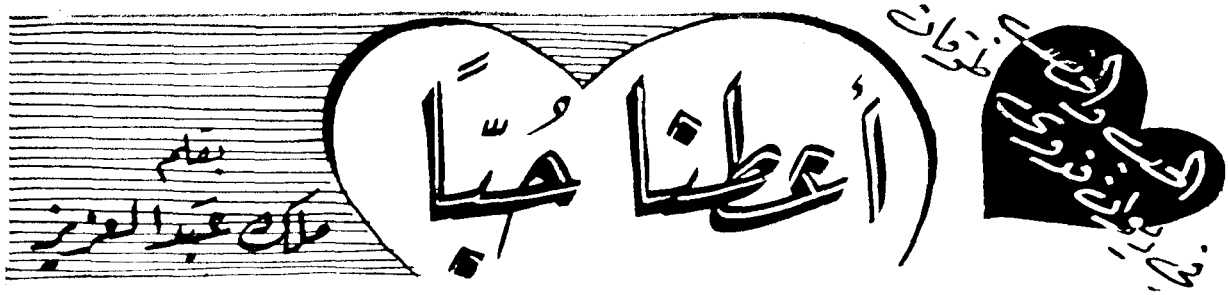

أعطنا حباً

بقلم
ملك عبد العزيز

لا يستطيع ناقد ان يتحدث عن ديوان فدوى الاخير « اعطنا حبا » دون ان يتعرض بالحديث لديوانيها السابقين « وحدي مع الايام » الذي صدر سنة ١٩٥٢ ، و « وجدتها » الذي صدر سنة ١٩٥٧ . فديوانها الاخير ليس الا حلقة في ملحمة الحب التي توفرت الشاعرة المرهفة فدوى على كتابتها خلال حياتها الشعرية بأسرها .

فالحب هو الموضوع الاساسي الذي تناولته هذه الدواوين الثلاثة. واذا كان في ديوانها الاول بعض القصائد بها تأملات صوفية ومناجاة للطبيعة وامتزاج بأسرارها وحديث عن نفس الشاعرة من خلالها مثل قصائد « مع المروج » و « خريف ومساء » و « الشاعرة والفراشة » و « أوهام في الزيتون » و « تهويمة صوفية » ، فان نفسها لم تكد تتفتح لهزة الحب الاولى ، حتى وجدنا « اشواقها الحائرة » (١) تجد مستقرها وتجد التعبير عن ذاتها في الحب ، وان كان من غير المعقول ان تمر نكبة فلسطين بشاعرة فلسطينية مرهفة دون ان تهز نفسها وتحرك كوامنها ، فنرى خمس قصائد حول هذا الموضوع في ختام ديوانها الاول « وحدي مع الايام » كما نجد في ديوانها الثاني « وجدتها » قصيدتين : احداهما قصيدة شبه قصصية هي « نداء الارض » والثانية « حلم الذكرى » تمزج فيها بين ذكرياتها عن شقيقها المجاهد الفقيد وبين القضية التي كان يكافح في سبيلها ، كما نجد ايضا في هذا الديوان قصيدة « شعلة الحرية » مهداة الى مصر ابان كفاحها ضد العدوان الثلاثي .

أما ديوانها الاخير « اعطنا حبا » وما خلا ما ذكرت من قصائد الديوانين السابقين فيستأثر به موضوع الحب استئثارا كاملا : تصور حالاته وابتعاثاته الشعورية ومواقفه الانسانية ، عدا قصيدة واحدة وجهتها للشاعر المكافح كمال ناصر (٢) فانها تلم فيها بقضية الحرية حين تقول :

يا طائري السجين اصدح لنا
رغم هوان القيد رغم الظلام
فالافق ما زال غنيّ المنى
ينتظر الشمس وراء القتام
المجد للنور فلا تبتئس
والنصر للحرية الرائعه
وغدنا موطن احلامنا
فلا تقل حريتنا ضائعة
يا طائري هناك درب الرجاء
رغم انطباق الليل من حولنا

على اننا نجد تطورا ملحوظا لدى الشاعرة في تصوير المشاعر التي يبعثها الحب ، ففي ديوانها الاول نراها تلتفت التفاتا كبيرا الى تطوير الاثر الحسي وسطوته فنراها تقول في قصيدة « غب النوى » :

وفي غمرات الذهول العميق	تطالعني القامة الفارعة
فاشخص ثم اغض حياء	وأكسر من لهفتي الجائعة
وأبدي جمود الخلي كأن لم	ترج دمي الطلعة الرائعة

وفي قصيدة « في سفح عيبال » تقول :

أحس عينيك وما فيهما ... من وهج يطفر من السنا
حولي تشعان بنجوى هواك
« نارهما السوداء كالصاعقة
تنفض من نظرتك الحارقة »

كما نلاحظ حدة المشاعر التيترجها حين تمر بها ازمة من ازمات الحب فنراها تنهار شاكية نائحة مستعطفة . ففي قصيدة « محراب الاشواق » نراها تقول :

ذنبي الذي قد هاج ثورة قلبك المترفع
« كفرت عنه بأدمعي بتنهدي بتوجعي »
كفرت عنه بما ترى من « ذلتي وتخشعي »
« وبخفض قمة كبريائي الشامخ المتمنع »

كما تقول في قصيدة « غب النوى » :

« حنانك » ضقت وضاقت حياتي بهذا الصدى المحرق اللاهب

. . . . .

« حنانك » قلبي يذوب وراءك ، أواه من « قلبي الذائب »

او في قصيدة « الصدى الباكي » :

« رحمة يا شاعري » وانظر الى اصداء روحي
انها في شعري الباكي استغاثات ذبيح

بينما نلاحظ نغمات جديدة نبتت في ديوانها الثاني « وجدتها » ثم استمرت في ديوانها الاخير « اعطنا حبا » متمشية مع النضج النفسي والعاطفي بل ومع تطور الوعي العربي العام . ففي قصيدة «لا انفصال»(١) نراها تتحدث عن الروابط التي تربطها بمن تحب ومن بينها الرابطة الفكرية فتتعدد تلك الروابط التي بنيا بها سجن الحب :

من الذكريات
« من الرأي اذ نلتقي عنده يا حبيبي
من الفكرة الواحدة » ...

بينما نلاحظ في الديوان الاول ان الرابطة الوحيدة هي الرابطة العاطفية الخالصة ، وان كانت مرتبطة ارتباطا كاملا بكون المحبوب شاعرا مجيدا .

وفي قصيدة « هو وهي » نرى الشاعرة تصور المحبوب بطلا مكافحا (٢) يحارب الطغاة من الحكام ويجاهد من اجل فلسطين وحرية الوطن العربي ، ويكافح من اجل الخلاص والوصول الى عالم افضل ، وان كان في نفس الوقت شاعرا (٣) جعل من :

« الفن والشعر صوتا
يجلجل في ثورة لا تلين
على الغاصبين حقوق الفقير
على السارقين جني الكادحين »

كما نلاحظ في ديوانها الاخير « اعطنا حبا » صورة البطل المكافح الشاعر في قصيدة الى المغرد السجين :

شدوك يأتينا حبيب الصدى
محلقا رغم انغلاق الرحاب

(١) للشاعرة قصيدة باسم « اشواق حائرة » ص ٣٢ من ديوان « وحدي مع الايام » .
(٢) قصيدة الى المغرد السجين ص ٣٠ من ديوان « اعطنا حبا ».

من ديوان « وجدتها » (٣) ص ١٨١ من ديوان « وجدتها »
من ديوان « وجدتها » (٣) ص ١٨١ من ديوان « وجدتها »

يا طائري السجين فاصدح لنـا
من خلف جدران الدجى والعذاب
غن فقضبان الحديد التـي
تسد في وجهك رحب الفضـاء
لن تحجب الغنــاء عن سمعنا
يا طائري : غن فدرب الرجــاء
ما زال يمتـد مشع الضيـاء
رغم انطباق الليل مـن حولنـا

فلم يعد الشعر وحده كافيا لرسم صورة المثل الاعلى في خيــال الشاعرة ، بل اننا لنجد في هذه القصيدة المرهفة تفـاؤلا وأملا فـي المستقبل لا نجدهما في قصيدتها الرائعة « نداء الارض » (٤) التي تصور لاجئا جذبه الحنين الى السير الى حدود الارض المغتصبة حتى اذا بلغها صرعه المغتصبون المجرمون فامتزج دمه بترابها المقدس .

وفيما يختص بهذا الامر ـ أي بمأساة فلسطين ـ نلاحظ ان قصائد الشاعرة في ديوانها الاول كانت اكثر املا ورغبة في الثأر ودعوة لــه خصوصا في قصيدتيها « بعد الكارثة » و « رقيـة » . ففي نهـاية القصيدة الاولى نراها تقول :

ستنجلي الغمـرة يا موطني
ويمســح الفجـر غواشي الظلـم
والامل الظامىء مهمـا ذوى
لســوف يـروى بلهيب ودم
فالجوهـر الكـامن في امتي
ما يأتلي يحمــل معنى الضرم
. . . . .
لكـن للثـأر غـدا هبــة
جــارفة الهول عصوفـا عمم
فالضربة الصمـاء قد الهبت
في كــل حر جـذوة تضطرم
لن يقعـد الاحرار عن ثأرهم
وفي دم الاحرار تغلي النقم

وهذا التطور في نفس الشاعرة في هذا الموضوع يفسره ان نكبة فلسطين قد هزت النفوس وانهبتها ونبهتها الى وجوب العمل للثأر،فلما امتد الامد دون تحقيق الامل،بدأ الياس يتسرب الى النفوس،وحل الحنين والحلم مكان الامل في الكفاح ، فلمـا قامت الانتفاضة العربية الاخيرة بقيام الثورة المصرية عاد الامل مجددا، وعادت النفوس تتطلع الى المستقبل في ثقة .

على اننا اذا عدنا الى موضوع الحب لوجدنا ان التطور الشعوري لدى الشاعرة ينقلها بعد ديوانها الاول من مرحلة الفتاة الصغيرة العابدة الضارعة المتلقية التي يكون الرجل بالنسبة اليها بمثابة الاب تلجأ اليه وتحتمي به ـ الى المرأة التي تعطي وتمنح مثلما تأخذ ، المرأة التي تملك « الينابيع والخصب » وتملك البذل مثلما تملك التلقي ، والى الام التي تحنو على من تحب وتبذل له الرحمة .

ففي قصيدة « قصة موعد » من ديوانها الاول ، نرى تلك الفتاة العابدة الضارعة المتفجعة :

هناك على شاطىء كـم حواك   وكم ضم مــن ذكريات هواك
تملمـل قلبي فوق الرمــال   « يعانق ذراتها في ابتهـال »
و « يلثم فيهــا رســوم خطـاك »
واجهشت في « وله ضارع »   وقد بت من « يأسي الفاجع »
ومن غربة الدار في شقوتي   ولم ادر كيف ولـم ادر أيـن
أفتش عــن عـالمي الضـائع

بينما نجد الشاعرة في ديوانها الثاني هي المراة الخصبة المعطاء :

كلمـا ناديتني جئت اليـك (٢)

(١) ص ٨ من ديوان « وجدتها » (٢) ص ٨١ من ديوان « وجدتها »

بكنوزي كلهـا ملـك يديك
بينابيعي بأثمــاري بخصبي
يا حبيبي .

وفي قصيدة « تشك بحبي » (١) نسمعها تقول :

وحين رجعت اليــك
رجعت بكـل تعطش قلبي
« لانشر ظلي عليك
لاعطيـك حبي »

فهي الام الحنون المعطية رغم أنهـا تتحدث عن بطل مكافح خاض الردى ، ورغم انها قد تستشعر العبادة والتقديس للبطولة فتقول :

وهي في استغراقها يجتاحهـا موج شعور أبكم (٢)
فيـه ألوان من « الرحمة » والعشق وتقديس البطولة
فيـه احساس العبــادة
والتقت عيناهمـا في نظرة دامعة جذلى طويلة ،
حين مرت بحنو راحتاهـا
فوق جرح كـم تمنت لو يداهـا
لفتـا في ساحة الحرب ضماده

بل ان الشاعرة نفسها لتعي هذا الاحساس الجديد فتقـول :

تلمست تلك الجراح الغوالي (٣)
« وشيء بصدري كحس الامومة »
تلمستها وحنوت عليهــا
بروحي « الرؤوم » ونفسي « الرحيمة »

بل ان هذا الاحساس العارم بالامومة ليلـون صورها الاخرى ، فنراها في قصيدة « نــداء الارض » تصور العلاقة بين اللاجـيء وارضـه السليبة علاقة امومة ، فتصور اللقاء بها علــى الحدود بقولها :

ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم (٤)
والقى على حضنها كل ثقل سنين الالم

كما تصور احتضان الارض السليبة لجـدث اللاجيء بقولها :

تلف ذراعين مشتــاقتين
على جسد هامد مستريــح

اما ديوانها الاخير « اعطنا حبا » فاذا كنا نجد فيه خيطا واحدا كأثر باق من تصوير المشاعر الحية العنيفة في قصيدتها « القصيــدة الاولى » حيث تقول :

هـا انت في عينيك عاصفـة
تجتاحني وهبوب اعصــار
ها أنت بحر راح يأخذني
في موجتيه أخـذ جبــار

فان النغم الغالب الذي تنسج منه بقية ديوانهـا هو نغم الامومة المعطاء ، ولذلك نجد كلمات ـ الخصب ـ و ـ السخاء ـ و ـ الفيض ـ و ـ الغنى ـ و ـ الامتلاء ـ و ـ الزرع ـ و ـ والبذار ـ و ـالعطاء ـ يكثر ترددها في شعرها ، وتعطي الصورة الكاملة للمراة الطبيعية التـي تؤدي الدور الذي رسمته لها الطبيعة منذ بدء الخليقة : دور العطاء .

فالشاعرة تعطي الحب من حنانها كما تعطي الحبيب ، فتقول في « القصيدة الاولى » عن حبها وكأن طفلها تسقيه وتناغيه :

اسقيه من عطري اوسـده
صدري أناغيه بأشعــاري

ثم تخاطب المحبوب بقولها :

(١) ص ٩٢ من ديوان « وجدتها » (٢) ص ١٨٥ « وجدتهــا »
(٣) ص ٤٤ من ديوان « وجدتها » (٤) ص ١٧ من ديوان «وجدتها ».

لهواك كل « مواسمي امتلأت »
« وسخت بفيض » جني وأزهار

وتقول في قصيدة « عد من هناك » عن عبير الذكرى :

يدعوك يهتف : عد لهـــا
يا طفلهـا
عد من هنـاك من البعيـد
« لصدرها الحاني الظلال »

فالحب ـ كما هو في الطبيعة ـ هو ايضا في احساس الشاعـــرة مصدر الخصب والغنى والامتلاء : هو الذي يفجر الشعر والحلم ودفء المنى :

غبت ؟ ولو غبت فما زال في (١)
دمي عبـير منـــك يرويني
« يخصبني » « يملأ كوني غنى »
يمنحني أجمـل مـا في الدنى
الشعر والحلـــم ودفء المنى

بل انها لتحضنه كما تحضن الام وليدها ، بل تحمله في ذاتها كما يحمل الجنـين :

وحين يؤوي الليل اهل الهوى (٢)
« أحضن اشواقي » وأغفو على
ذكرى توافيني
ذكرى هنيهات ملاء قصار
أحملهـــا في « سر تكويني »

والحب فيض يروي القلوب فتمرع :

انت شربت الغمر من حبنا (٣)
وانت « أمرعت على خصبنـا »

بل هو البذرة التي تزرع في الارض الخصبة فتتفجر فيهـا كنوز الخير :

اعطنا حبا فبالحب كنوز الخير فينا تتفجر
وأغانينا ستخضر على الحب وتزهر
وستنهـــل عطـــاء
وثـراء
وخصوبـة
اعطنا حبا فنبني العـــالم المنهار فينا
من جديد
ونعيـد
فرحة الخصب لدنيانا الجديدة

اما حين يزرع في الارض البوار فانه لا يغل :

لكن علمنا بعد حين
انا زرعنا زرعنا في الملح في الارض البوار
أنا ضللنا حين القينا البذار
في قلب ارض لا تغـــل
كان الجفاف نصيبنا ولغيرنا خصب وظل

والحب في مشاعر الشاعرة ـ هو الباني وهو المحرك للحياة المفجر لنبعها الدافع الى انتصاراتها فهي تقول :

الهوى كان « لنبني ولنعطي » (٤)
خير ما فينـــا
لا ليفنينـــا
ويحيل النور والخصب ظلاما ورمادا
في أغانينا

وتقول ايضا في نفس القصيدة :

اعطنا نورا يشق الظلمات المدلهمة
وعلى دفـق سنـــاه
ندفع الخطو الى ذروة قمة
نجتني منهـــا « انتصارات الحيـــاة »

والشاعرة تريد ان تعيش الحياة مليئة نابضة مرتعشة ، ولا ترى في شيء سوى الحب القدرة على ذلك وعلى ان يبلغ بها ذروة الحيـــاة ويملكها كنوزها :

مازال في نفسي يوم الثلوج (١)
اغنية بيضـــاء
عميقـــة الاصداء
أعيشهـــا « أحيا ارتعاشاتها »

. . . . .

وكنت لي يا فتنتي الكبرى
قصيدة ، قصية كبـرى
« تنبض في اعماقي الغافية »
ويومها احسستني يومهـــا
أعانق الحيـاة في مجدهـــا
وجدتني « ابلغ ذرواتها »
رأيتني « أملك ثرواتها »

فالحب « يعيد نسيج الحياة جديدا » (٢) وصوت الحبيب « يرف ويرعش في كل شيء » (٣) ، وهو في نظر الشاعرة المهرب والمنفـذ مـن الوحدة والوحشة والفراغ ورتابة الحياة ، وهو رأي لها قديم منـذ ديوانها الاول « وحدي مع الايام » ففيه تقول في قصيـدة « قصـة موعد » :

كفاني بان الهوى قد أحال فراغ حياتي غنى وامتلاء

وفي ديوانها الاخير تقول في قصيدة « وقد حدثتني ذات ليلة :

هتفت من الجـــانب الاخر
وكنت بعيـــده
أهيم وراء شواطىء ذاتي
اهيـم بعيـدا وليس معـي
سوى وحشة الليل في مخدعـي
وفي الدار حولي فراغ الصحارى
وصمـت القفـــار
وكنـت وحيـده
اعيش حياتـي بغير انتظـار
بغير انفعـــال مثـــار
وكنت طويت كتـاب الحنين
وشوق السنين
واخمـدت نـارى

. . . . .

ورن هتافك عبر المسافـات
يطـرق بـاب انطـوائي
« يفجـر نبع الحيـاة بأرضي »
ويلمس عمـق سمائي

وفي قصيدة « ذاك المساء » (٣) تصف حالة الفراغ التي تحسها بعـد ان انهت حكاية حب :

كـان الفـراغ يخط في عيني ثقلـه
وتفاهـة الاشيـاء تلقي
ظلهـا الخاوي بنفسي
وتلف ايـامي البطيئـات المملة
فحكاية الحـب التي أنهيتهـــا
شيعتهـــا

فالحب هـو الذي يفجر الحياة وهـو دائما مصدر الخلق :

... كـان بالامس القريب (٤)

---

(١) قصيدة « اليه بعيدا » من ديوان « اعطنا حبا » .
(٢) من قصيدة « اليه بعيدا » من ديوان « اعطنا حبا » (٣) مـن قصيدة « غير ان » من ديوان « اعطنا حبا » (٤) مـن قصيـــدة « القصيدة الاخيرة » من ديوان « اعطنا حبا » .

(١) من قصيدة « يوم الثلوج » مـن ديوان « اعطنا حبـــا »
(٢) ، (٣) من قصيدة « وقد حدثتني ذات ليلـــة » مـن ديوان « اعطنا حبا » . (٣) من ديوان « اعطنا حبا »
(٤) من قصيدة « الاله الذي مات » من ديوان اعطنا حبا

تخلق الاقمار فينا والشموس
ويعاطينا كنوزا وكنوز
من رؤى الابداع والخلق وأمجاد الخلود

ولئن كان للشاعرة اشعار خالصة في الطبيعة في ديوانها الاول مثل قصيدتي « المروج » و « الفراشة » ـ الا انها لم تكن تستشعر الحب حتى اصبحت الطبيعة في خدمته ـ اصبحت اطارا له ، وجوا شعريا يمرح فيه ، وصورا جميلة ، مشرقة تعبر بها عن مشاعره وطيوفه ، بل قد تجعلها مهربا من غدر البشر وخيبة الحب ومأوى تجد فيه الحنان وسكينة الروح (١) . فنحن لانجد في ديوانها الثاني سوى قصيدة واحدة خالصة للطبيعة هي « هنيهة » تصور فيها لحظة السلام والاتحاد بالمطلق التي استشعرتها وهي في « رفيديا قرية الظلال الخضراء » . بينما نجد الطبيعة اطارا ساحرا للحب في اكثر قصائد ذلك الديوان مثل قصيدة « الكون المسحور » و « هل تذكر » او خلال قصيدتها الطويلة « هو وهي » حيث تقول مثلا :

وراح يمر يدا تتندى (٢)
على خدها بافتتان وحب
وعانق فيها اشتعال الشباب
وعانق فيها اضطرام الحياة
ونيسان حولهما يتنفس
في الشط عطرا نموما شذاه
وقد سكنت في المكان الظلال
واضطجعت فوق مهد الضياء
وأغفت دورب الحدائق في الشمس
ناعمة وارتخت في انتشاء
وكان هنالك برعم زهر
يفتح قرت عليه فراشة
ومدت عليه جناحين تعرو
سكونهما رجفة وارتعاشة
مشاهد حين استراحت عليها
عيون الحبيبين عبر الضياء
بدت لهما « صورة » لتفتح
نفسيهما للهوى والهناء

ونحن لم نكن بحاجة الى الاسطر الاربعة الاخيرة لنعلم ان صور الطبيعة التي وصفتها الشاعرة كانت لتفتح نفسيهما للهوى ، فمن الواضح ان تلك المشاهد لم تكن مجرد « صورة » لتفتح نفس العاشقين بل كانت ـ في الحقيقة ـ انعكاسا لما في نفسيهما وخلعا له على مظاهر الطبيعة المرئية . فليست الظلال هي التي « سكنت » ولا دروب الحدائق هي التي « ارتخت في انتشاء » ولا برعم الزهر هو الذي « يتفتح » ولا اجنحة الفراشة هي التي ترجف وترتعش ، بل هي نفس الشاعرة التي تشعر بكل ذلك في ذاتها فتخلعه على مظاهر الطبيعة من حولها ، وتعبر بصورها الخارجية عن عالمها النفسي الداخلي على طريقة التعبير عن المشاعر الداخلية ويمزج بينهما في حلول شعري رائع .

وفي ديوان « اعطنا حبا » لاتزال الشاعرة تتبع هذا النهج في التعبير فتأتي بصور حافلة بنبض الطبيعة مفعمة بأريجها . ففي قصيدة « اليه بعيدا » تطالعنا لوحة رائعة ترسمها في لمسات سريعة مرهفة تعطينا بها صورة نابضة متوهجة لاحساسها النفسي بفرحة الحب :

فأصحب الشمس الى موعدي
أصحبها وفي دمي يقظة
يبعثها الحب فتعطيني
تذوق الحياة حس الجمال
الوهج الضاحك فوق التلال
الخضرة الريا بحضن الجبال
روائح الارض ارتعاشاتها
نكهتها الوانها كل ما
في الدروب من جمال
ملون الظلال

ولم تتركنا الشاعرة هذه المرة نحدس طويلا لمن « الوهج الضاحك » و « نضرة الخضرة » و « ارتعاش الارض » فقد صرحت لنا من البدء بان الحب هو الذي يعطيها هذه المشاعر وينقل هذه الصور من الطبيعة الى داخل ذاتها .

واحساس الشاعرة بالطبيعة احساس اصيل رغم انها اصبحت تضعها في خدمة الحب ، وهو يصل في كثير من الاحيان الى الحلول الصوفي .

ولئن كان للشاعرة قصيدة صوفية خالصة في ديوانها الاول ـ تتوق فيها الى الاتحاد بالمطلق ـ مبعثها صوت المؤذن في الفجر ـ فان اكثر مشاعرها الصوفية ـ كان مبعثها مجال الطبيعة . ففي قصيدة « الشاعرة والفراشة » (١) نسمعها تقول :

رنت فتاة الشعر مأخوذة بصورة الطبيعة الخالبه
والافق الغربي تطفو به الوانه الوردية اللاهبه
كأنه أرض خرافية هوت الها شمسه الغاربه
ودت وفيها لهف كاسح « لو تأخذ الكون الى صدرها »
« تحضنه » وتشبع الروح من أياته الكبرى ومن سحرها
« تعانق الارض تضم السما تقبل الغيوم في سيرها »

وفي قصيدة « اشواق حائرة » (٢) تقول :

فأود لو افنى وادمج في عمق السماء ونورها الباسم

وكذلك قصيدة « هنيهة » في ديوانها « وجدتها » والتي اشرت اليها فيما سبق .

وليس هذا فحسب ، فكما ان الطبيعة اطار للحب وباعثة للمشاعر الصوفية فان الحب نفسه باعث لتلك المشاعر بل هو ممتزج بها كما كان المتصوفة يتخذون من محبة المحبوب طريقا للوصول وسبيلا للاتحاد بالمطلق . فالحب والطبيعة والاحساس الصوفي اقانيم ثلاثة تمتزج في نفس الشاعرة وتتساقى المشاعر والصور والالوان وان اختلفت النسب من قصيدة لاخرى . ففي قصيدة « سمو » من ديوانها الاول نراها تقول في ختامها :

اخالك صورة حب كبير جلاها لعيني وحي السما
تهيىء روحي لصوفية وتنفض عنها غبار الثرى

وفي ديوانها الثاني في قصيدة « انا والسر الضائع » تقول :

لقيته لا حلما انما
حقيقة ساطعة باهره
عانقت فيها حين عانقها
الله والحب وسر الحياه

وفي ديوانها الاخير في قصيدة « وقد حدثتني ذات ليلة » تعبر عن فرحتها حين حدثها المحبوب في الهاتف فتقول :

ويا لانبعاثي
ويا لانحطافي
ويا لانخطافي
وراء حدود الزمان »

وفي ديوانها الاخير تختم قصيدتها « اسمك » بقولها :

اسمك لي :
يا كلمة ماتنى
تجاور اسم الله في قلبي

وبنفس الطريقة التي تستخدم بها صور الطبيعة للتعبير عن مشاعر

ـ التتمة على الصفحة ٨٩ ـ

(١) قصيدة « انطلاق » من ديوان « وحدي مع الايام » (٢) ص ١٧٥ ، ١٧٦ من ديوان « وجدتها »

(١) ديوان « وحدي مع الايام »
(٢) ديوان « وحدي مع الايام »

الحب والخصب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٦ ـ

الحب ، نراها تستخدم الفاظ المشاعر والشعائر الدينية للتعبير عن مشاعرها فقصيدتها الموجهة للعام الجديد تتخذ عنوانا لها « صلاة الى العام الجديد » (١) وتبداها بقولها :

في يدينا لك اشواق جديده
في ماقينا « تسابيح » وألحان فريده
سوف نزجيها « قرابين » غناء في يديك

وفي قصيدة « اغنية البجعة » (٢) ، تقول عن الحب :

في الليالي الممطرات الدف شدنا حوله
« تعبدا » أفعمه خصب الهوى شعرا وفنا
وعلى أجنحة النشوة « طوفنا به »
« وتعبدنا » لدى « محرابه »
« وتلونا » كم تلونا
« سور » الحب لديه كم عزفنا
أغنيات البهجة الكبرى له

وكذلك قصيدة « الاله الذي مات » (٣) ، فالمقطع الاول من القصيدة فضلا عن رمز القصيدة ذاته يمثل اكبر تمثيل امتزاج صور الحب والدين في وجدان الشاعرة :

نحن جئناه لنطوي عنده « سفر الذنوب »
« لنصلي ونتوب »
وبأيدينا له « كفارة » الشعر « وقربان الاغاني »

على اننا نجد في ديوان « اعطنا حبا » بعض التطور في تناول مشاعر الحب ، ظهرت بوادره الاولى في ديوان « وجدتها » في قصيدتي «القيود الغالية » و « لا انفصال » ، وهو اتجاه التأمل في مشاعر الحب الدقيقة واستقصاء خلجاتها الخفية ، بعد ان كان التعبير عنها في ديوانها الاول انفجارات عاطفية لافحة جياشة ، لاتستطيع الشاعرة ان تكبح جماحها لتخضعها لتأملها الهادىء المستأني ، بينما قد استطاعت في اتجاهها الجديد ان تحلل بعض مشاعر الحب المعقدة ، وترسم لنا دقائقها الخفية المرهفة ، وفي ديوانها الجديد « اعطنا حبا » نجد لها بضع قصائد تحاول نفس المحاولة مثل قصيدة « أسطورة الوفاء » التي تسخر فيها او تيأس من وجود الوفاء ، وهي في جو هذا اليأس الذي اقنعتها به تجارب الحياة لاتثور بل تسلم تسليم من ألف الحياة وألف مرارتها حتى فقدت المرارة طعمها ، حتى لتكاد تخلو القصيدة من الانفعال مما يجعلها اقرب الى السرد النثري :

أسال مثلك :
أين الوفاء
وماذا عن الاوفياء
وأين هواك القديم
وأين النساء
مئات النساء اللواتي حببت
وكل امراة
تظنك ملك يديها
وتحسب حبك وقفا عليها

بينما تحتفظ قصيدتها التأملية الثانية « الكلمة والتجربة » (٤) بشيء كثير من حرارة الانفعال التي تستجلب الصور الشعرية بل والانسجام الموسيقي ، رغم انها تعالجها بطريقة موضوعية فيها تجريد المعنى العام المستمد من تجارب كثيرة سابقة ، لا خصوصية التجربة المرتبطة بحادثة واحدة معينة ، فتقول عن كلمة الحب :

نسمعها ، نسمعها نغمة
تنساب في لين حريريه
فترعش الخضرة فوق التلال
ويستفيق الجمال
ويستحيل الكون اغنيه

ثم تأتي قصيدتها التأملية الثالثة « لا مفر » (١) . والشاعرة تصدرها بكلمة ، نثرية هي « لا أؤمن بجبرية تأتينا من الخارج ، وانما الجبرية تكمن في داخل الذات ،هي جزء لاينفصل عن النفس ، ومن هنا مأساة وجودنا الانساني » . وهذا المضمون هو ـ كما يرى القارىء ـ مضمون عميق مأسوي كبير ، يوجد في النفس التي تعيه الوانا من التأمل والصراع . ولكن الشاعرة تناولت هذا الموضوع ـ الذي يصلح موضوعا لدراما عاتية ـ تناولا هينا كاد يخلو من الاحساس بوطأة المأساة ، فجاء التعبير عنه فاترا نثريا يكاد يكون خاليا من الصور الموحية ، ومن لذع الصراع :

لو انني رجعت وملء يديه
تجارب عمري وخبراتيه
وما لقنتني الحياة الكبيره
وما علمتني السنون الكثيره
لعدت برغمي لاخطائيه
ونفس حماقاتيه
لكنت اواجه نفس المصير
ونفس الضياع

ومثل هذا الموضوع كان خليقا ـ لكي يأخذ ابعاده الحقيقية ويتمثل تمثلا كاملا بكل جبروته ـ ان يضمن في اسطورة او في رمز كلي جامع، تثري عن طريقه الصورة الفنية ، ويتحقق لها الكيان الكامل الصلب المتحيز الذي يهز وجداننا ، فالشعر الفكري او التأملي لابد ـ لكي يعتبر شعرا ـ من ان يمر اولا بالوجدان وتشحنه العاطفة بحرارتها وبثرية الخيال ـ الذي أيقظته العاطفة ـ بصوره المجسمة الخلاقة .

على ان شاعرتنا وان كانت قد نجحت نجاحا كبيرا في قصيدتيها التحليليتين اللتين اشرت اليهما في ديوان « وجدتها » فان اتجاهها الحقيقي هو في التعبير العاطفي المنطلق انطلاقا مباشرا حرا كطبيعتها التي تكره القيود وتتحدى الجدران . وهي قلما تلجأ الى الرمز ، وان لجأت اليه فلن تجد فيه غموضا كثيرا . ورغم انها نجحت نجاحا رائعا في محاولة في قصيدتها « الصخرة » (٢) ثم « دوامة الغبار » ـ الا انه ليس اتجاهها الاصيل ، فهي لم تلجأ اليه او الى شيء منه في ديوانها الاخير « اعطنا حبا » الا في ثلاث قصائد : « الاله الذي مات » و «الهزيمة» و « رجوع الى البحر » . وفي هذه القصيدة الاخيرة ترمز الشاعرة بالبحر للقلق والتيه والضياع بل للنكوص بعد ان وجدت الجزيرة التي طالما حلمت بها ليست سوى قفر ملح لاتنبت فيه بذرة الحب . والرمز في هذه القصيدة قد اعطاها عمقا وتجسيدا وأعطاها الصورة الكلية الموحية بالصور الجزئية النابضة .

على ان اجمل مافي شعر فدوى هو ذلك الانطلاق العاطفي المجنح الذي ينبض صدقا وحرارة ، وينساب في بساطة وحرية وعذوبة ورقة، ولا اشعر اني قرأت مرة شعر فدوى ـ حتى قصائدها الحزينة ، الا واحسست بالانتعاش والتفتح والانطلاق ، فكأن روحها فراشة تنبض بالحيوية وترتعش خفقاتها وسط روضة مشرقة بالزهور مفعمة بالعبير ثم تمضي تحلق وتحلق وتعلو وتعلو، حتى تغيب في الاثير وتتحد بالمطلق . وهذا الاثر الذي تبعثه في النفس يوحي به ـ فضلا عن تدفق مشاعرها ، واطلاقها لها اطلاقا حرا حتى من الاسطورة والرمز ـ يوحي به كثرة استخدامها لالفاظ « الرعشة » و « الانتفاضة » و « النبضه » و « الايقاظ » و « الاختلاج » و « الرفيف » ، و الزهوة والازهار

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) من ديوان « اعطنا حبا »

(١) من ديوان « اعطنا حبا»
(٢) من ديوان « وجدتها »

و الطراوة والنداوة والوهج والعبير

واذا كان يغلب على ديوانها الاول حدة المشاعر وعنفها واصطناع مايلائمها من البحور الطويلة في كثير من الاحيان ، واستخدام الالفاظ التي تحمل قدرا من الجزالة ـ الا انها لم تلبث في ديوانيها التاليين ان مالت اكثر الى الرقة والرهافة التي تلائم المشاعر الجديدة التي تفجرت في ذاتها ـ مشاعر الامومة الحانية المعطية ، كما اصبحت اكثر تصرفا في الاوزان لتلائم في دقة بين مشاعرها وموسيقى نفسها . ولكنها كانت في الحالين حريصة دائما على انتقاء اللفظ الدقيق الانيق المعبر ، فلا تنساق وراء الذاكرة في اجتلاب الفاظ لا ضرورة لها ، اولا تعبر تعبيرا دقيقا عما في نفسها .

على ان هناك اتجاها جميلا لاحظته في ديوانها الاخير « اعطنا حبا » وهو استخدام بعض الصور التي تحمل سذاجة ورهافة ساحرة من مثل مايستعمل في الشعر الشعبي فيكسبها نضرة والفة تلمس القلب .ففي قصيدة « يزورنا » تقول :

« مدى على الدرب بساطا حرير »
وجدولا من عبير
«يحمل من أهوى الى دارنا »

كما تقول :

يزورنا في الجمعة المقبلة
« وددت لو افرش عيني له »
وددت كم وددت لو في يدي
مملكة الضياء ، لو في يدى
« أشيد من نجومها سلما »
لدارنا
اشيده من اجله حينما
يزورنا »

كذلك استعمالها لكلمة « الله » كما نستعملها في حديثنا اليومي لاظهار غاية الاعجاب :

يزورنا في الجمعة المقبلة
الله ! هذا الوعد ما أجمله

او في قصيدة « يوم الثلوج » (١) :

الله ما أحلاه يوم الثلوج !

ولفدوى بعض الصور الكلية التي قد تصل الى مرتبة الرمز الكامل الذي قد يستغرق القصيدة من بدايتها حتى نهايتها كقصيدة « العودة الى البحر » التي اشرت اليها او التي تستغرق جزءا من القصيدة ، مثل قصيدة « هزيمة » (٢) التي تستخدم في الجزء الاوسط منها صورة الجدار رمزا لما قام بين الحبيبين من ظنون وشكوك فقد فرعت منه صورا جزئية تناسبه وتتمشى معه لتكمل بها هيكل الصورة . وقد وفقت الشاعرة في هذه الصورة ، كما وفقت في قصيدة « العودة الى البحر» توفيقا رائعا ، ولكن ما تحذقه فدوى هو الصور الجزئية النابضة بالحرارة والحيوية ، معن اجمل صورها ـ غير ماذكرت في مقتطفاتي السابقة ـ قولها مثلا :

اسمك ؟
ياطلة فجر على
تعثري في عتمة الدرب

او قولها :

لهواك كل مواسمي امتلأت
وسخت فيض جنى وازهار
لهواك افاقي مرصعة
يزهو السنا في صدرها العاري

ذلك ان الرمز الكلي الذي يستغرق القصيدة كلها كثيرا مايحتاج الى السيطرة على المشاعر واحكام قيادتها والى الاختفاء خلف الرمز، والى اخفاء التجربة الخاصة خلف المعنى العام الذي يشير اليه ، بينما شعر فدوى شعر ذاتي منطلق لا يطيق الصبر للترصد والاختفاء ، ولايطيق كبح الشعور الذاتي لتجسيده في صورة مجسمة تلوح ـ ظاهريا ـ منفصلة عن تجربة الشاعر الذاتية الخاصة .

ولا استطيع ان انهي حديثي عن ديوان فدوى الاخير وعن وسائلها في التعبير دون ان اشير الى قصيدة « غيران » ، فكم فيها من الرقة والحنو كأنما هي ام تحنو على صغيرها تدلله :

غيران يا زنبق ! ..
غيران يا كنز امانينا ؟
اذن لمن صغنا أغانينا ؟
لمن منحنا خير مافينا ؟
يا غينا الحبيب يا زنبق

وقد وفقت الشاعرة في التعبير عن هذا الاحساس ، ليس فقط بالتساؤل المستنكر الذي يتردد في رقة بالغة من حين لاخر في ثنايا القصيدة والتي قصرت عن عمد عن باقي الاسطر لتوحي ايحاء دقيقا مرهفا بالحنان المدلل الرقيق الذي يشبه حنان الام فكأني بها تميل حانية عليه وتقول :

غيران يا زنبق ؟

أو

ونحن هل نجحد ؟

أو

من قال يا زنبق ؟

وما كانت الشاعرة لتستطيع ان توحي لنا ايحاء حيا بهذا الاحساس لو جاءت اسطر القصيدة كلها متساوية الطول .

واخيرا وانا احيي الشاعرة المرهفة التي قالت عن نفسها في ديوانها الاول :

لم تك الا نغما شاجيا على رباب الشوق والصبوة

احب ان اسالها ، اما تخشى ان تكون مواقف الحب ومسائله ـ في حدود ما يتاح لها من تجربة ـ قد استنفدت في دواوينها السابقة ؟ وانها قد تكون تكررت في بعض القصائد ؟... ولئن كانت قد جددت في صورها او في طريقة التعبير احيانا اما تخشى ان تجد نفسها تكرر ذاتها مضطرة اخر الامر ؟ لعلي اطمع في ديوانها المقبل ان تجد اهتمامات اخرى وان ترود افاقا جديدة حتى نظل دائما نتمتع بفنها المرهف الخلاق .

ملك عبد العزيز

(١) ، (٢) من ديوان « اعطنا حبا »

صدر حديثا :

لهاث الحياة

مجموعة شعرية وجدانية

للدكتور يوسف عز الدين

دار العلم للملايين